السفسطائيون اليونان

للدكتور عثمان امين

﴿ تمهيد ﴾ : عرفت بلاد اليونان في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح عصراً من عصور العظمة والازدهار ، لا من الناحية السياسية فحسب ، بل من الناحية العقلية أيضاً . كان ذلك العصر فتحاً جديداً في تاريخ الفكر البشري : استيقظ فيه الانسان من سباته العقلي ، فنحّى عن ذهنه كابوس الخيالات الأولى التي كانت اشبه بخطرفة المرضى وتخريفات الأطفال ، وزال عن نفسه ما كان يساورها من فزع وهلع إزاء مشاهد الطبيعة وأحداثها ، تلك المشاهد التي كان يشعر بعجزه عن السيطرة عليها فضلاً عن الاحاطة بها

ولأول مرة في ذلك العصر تحقق الانسان ، عن وعي وشعور ، أنهُ هو الناظر المتفرج على مشاهد الكون كله ، وتبين ان العالم المعقد بأسره موجود بالقياس اليه ، وعرف ان له عيناً ليرى ، وأذناً ليسمع ، ويداً ليعمل ، وعقلاً ليتدبر ، وانهُ اذا تهيأ له من الصبر والاقدام وبذل الجهد ما يدعم به قواه ، حقّ له ان يطمع في الاشراف على الاشياء ، فيضبط جريانها ، ويوجهها الى تحقيق أسمى ما يصبو من غايات

كان ذلك العصر أول دويّ لمذهب الانساني الحديث ، وكان ذلك من بعض الوجوه أعظمها لأنهُ كان أبسطها وأبعدها عن الكلفة وأقربها الى الحرية ، وأقلها تأثراً بالتقيد والحدود

١ — ﴿ خصائص الوسط الذي نشأت فيه السفسطائية ﴾ : كانت الفلسفات اليونانية الاولى بحراً فاض بالمذهب والآراء : فهذا « هرقليطس » يقول ان كل شيء في الكون دائم التغير والجريان ، وذاك « برمنيدس » قد أنكر الحدوث والصيرورة وقرر انهُ لا حقيقة هناك الاّ للموجود الثابت الواحد الباقي ، في حين أن « ديموقريطس » قد وجد في مذهب الجزء الذي لا يتجزأ حلاً وسطاً بين التغير والثبات

وكان كل صاحب مذهب او مقالة يعلن ان آراءه هي عين الحق وكان في كل ذلك ما يدعو العقول الى الحيرة والشك ويبث في النفوس البلبلة والاضطراب

ولم تكن حال اليونان السياسية أقل إثارة للتشكك من حالهم العقلية . فقد دهمت

الارستقراطية . وأخذت تحل محلها الديمقراطية ، وبدأت تضيع من نفوس الناس حرمة القانون ، وانقضى معها نفوذ الآباء والأجداد ، كما ضاعت سيطرة العرف وهيبة التقاليد والعادات . وانبسط جاه المهرجين والزعماء الشعبيين ، وذاعت شهرة الخطباء وذوي المهارة في التأثير في نفوس الجماهير

عاش السفسطائيون في أثينا إبان ذلك القرن ، فأصابوا من النجاح حظًّا عظيماً . وتعليل ذلك غير عسير : فلقد كانت تلك الجماعة السفسطائية تزدري البحث في الميتافيزيقا الخالصة وتنفر من النظر في طبائع الاشياء واصولها الاولى . ولعلّ في هذه النزعة ما يجتذب نفوس الاثينيين الذين كان يعنيهم تدبير المدينة اكثر مما يعنيهم الوقوف على كنه الطبيعة، وتعنيهم الاخلاق والسياسة اكثر مما يعنيهم العلم المحض والنظر العقلي الصرف . ونستطيع ان نتبين هذه الظاهرة عند فلاسفة اليونان أنفسهم فان ميتافيزيقا افلاطون ذات اتصال وثيق بالاخلاق . وأرسطو هو صاحب العبارة المشهورة : « الانسان حيوان سياسي » (أي مدني) . وهذا الوصف الارسطاطالي ينطبق خير انطباق على الاثينيين بوجه خاص : فقد كانوا شعباً مشغوفاً بالسياسة ، تبهرهم الفصاحة ويسحرهم الاستدلال الدقيق، ويستهويهم حب الجدل ، ويروقهم النقاش والتحليل والتقسيم

والحق لقد كان وجود السفسطائيين مطابقاً لميول الناس وحاجاتهم في بلد يستطيع كل مواطن من أهله ان يكون له نصيب فعلي في الشؤون العامة ، وليس يدين بسطة نفوذه فيه الا الى ما أوتي من ملكة الكلام ، بلد يريد كل فرد فيه ان يعلن على رؤوس الاشهاد مواهبه وفضائله الخاصة التي يستطيع بها قيادة حياته وحياة الآخرين

وقد نستطيع ان نلخص فيما يلي خصائص الوسط الاجتماعي اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد : توثب وحماسة ، وتقلب في الاهواء ، واشتعال في الفكر ، وشوق الى الحياة ، وطمع في الرئاسة ، ونزوع الى الحرية ، وتطلع الى المعرفة ، مضافاً الى ذلك كله مرونة عقلية باهرة ودقة ذهنية فائقة

٢ — ﴿ السفسطائيون ﴾ : غير ان السفسطائيين لا يؤلفون فرقة بالمعنى الصحيح للمدرسة الفلسفية . وليس لهم مذهب مشترك محدد مرسوم ، على نحو ما نجد مثلاً في المدرستين الرواقية والابيقورية ، بل السفسطائيون قوم يجيئون من جميع المدارس اليونانية الفلسفية . ولكن الانصاف يقتضينا ان نلاحظ مع ذلك ان معالم السفسطائيين كان يجمع بينها غرض واحد وغرضهم قبل كل شيء غرض عملي : هو تعليم « الخير » . وهم يفسرون ذلك على معنى القدرة على تدبير الحكومة والاسرة تدبيراً مستقيماً

ولما كانت الحاجات التي يسدها هذا النوع من التعليم هي حاجات جميع المدن الديمقراطية فقد وجب ان يتنقل هؤلاء السفسطائيون من مدينة الى مدينة ، يجوبون البلاد اليونانية ، ملتمسين التلامذة والمستمعين ، مغرمين بالهتاف والتصفيق والتهليل . . .

وكان السفسطائي يستوفي على التعليم أجراً ، مثله في ذلك مثل صاحب أية صناعة أو عمل . وربما كان بعض السفسطائيين يقيس نفوذه وتأثيره الروحي بمقياس الربح الذي تدره عليه أجور دروسه وكثرة عدد تلاميذه . وهذا التكسب من العلم هو الذي أثار على السفسطائية سخط أفلاطون وأرسطو من بعد

٣ — ﴿ منهج السفسطائيين وموضوع بحوثهم ﴾ أما منهج السفسطائيين فيرجع في صميمه الى المناظرة والجدل ، ومعارضة الرأي بالرأي ، ومقارعة الحجة بالحجة . واذ كان مقصد السفسطائي ان يعلم تلاميذه ومستمعيه أموراً تنفعهم في الشؤون العامة والخاصة ، وان يلقنهم النصائح والارشادات ، والوسائل التي يتمكنون بها من التفوق على الأقران والغلبة على المنافسين ، فلم يكن بد من تعليمهم كيف ينقدون آراء الغير ، ويناقشون الحجج التي يدلي بها الخصوم . ولذلك كان سبيل السفسطائي في دروسه إما أن يلقي خطبة ضافية ، وإما أن يدلي باعتراضات على آراء غيره ، أو يوجه الاسئلة والاستجوابات الى تلاميذه ومستمعيه

وكثيراً ما يلقي السفسطائيون الخطب الخافلة التي هي في منزلة نماذج لما يستطيعون القيام بتعليمه في شتى الاغراض والموضوعات . فتارة يخوضون تارة في مسألة من المسائل العامة ، فلسفية كانت أو سياسية . وتارة يمتدحون أهل مدينة ما ، أو يرثون عظيماً من العظماء . وقد يتناولون موضوعات عادية أو تافهة : فيخطبون مثلاً في مدح الفيران أو ديدان الجرير وما الى ذلك

ومن أمثلة الاغراض التي كان يخطب فيها السفسطائيون اليونان ما نجده في رسالة صغيرة ألفها سفسطائي مجهول ، ويرجع عهدها الى القرن الخامس قبل الميلاد . وتكلم فيها على تسعة من الموضوعات التي اختلف فيها نظر الفلاسفة : كالطير والشر ، الحسن والقبح ، العدل والجور ، الحق والباطل ، الحكمة والسفه ، العلم والجهل ، العلم والفضيلة هل يلقنان ؟ هل يقام القضاة بالقرعة أو بحسب الكفاية ؟ أقدر الناس على سن القوانين وتطبيقها هو صاحب الجدل لانه يعرف جميع النقائض بين الآراء ، فن تقوية الذاكرة أجل المخترعات

تلك أمثلة للموضوعات التي كان يخوض فيها خطباء السفسطائيين عند اليونان ، وهي شبيهة بما نجد في كتب الجاحظ وغيره من الاسلاميين من تفضيل العرب على العجم أو تفضيل البيض على السود الخ . . . وعلها تشبه أيضاً موضوعات المناظرات التي يقيمها الخطباء المعاصرون في

هذه الأيام للبحث في مسائل من قبيل : هل يصلح المجتمع اذا تولى الشباب قيادته ؟ أو الثورة على المدنية الحاضرة شرٌّ على المجتمع الانساني الخ)

فالسفسطائي قبل كل شيء خطيب ، يعلم الناس الكلام الجيد أو الكتابة الحسنة الرشيقة في جميع الشئون والمقاصد الممكنة . ولكن ممارسة هذا الفن الكلامي في جميع الأغراض يتطلب معرفة واسعة. ويظهر أن من السفسطائيين من يدعي المعرفة بصناعات كثيرة فاننا نقرأ في احدى محاورات أفلاطون عن هيبياس انه حين قدم الى اوليمبيا أعلن أن ما يرتديه من ثياب وما يملك من أمتعة جميعها أشياء من صنع يده : رداؤه وعباءته وحزامه الموشّى وتعلاه وخاتم أصبعه ، حتى فرشة حصانه[1]

وعلى كل حال نجد السفسطائيين في لغة القرن الخامس واوائل القرن الرابع قبل الميلاد يشبهون من يسميهم ديكارت في عصره « بالمتعلمين » ، يعني رجالاً يُعدُّون قوّامين على الحكمة أو إخصائيين ، سواء أموسيقيين كانوا أم رياضيين أم أطباء أم معلمي ألعاب رياضية أم « شعراء ربابة » ، قد مهروا في صناعة من الصناعات فهم يتصدّون لتعليم الغير إياها

٤ — ﴿ انسانية السفسطائيين ﴾ كان السفسطائيون ينشدون ثقافة « انسانية » وعقلية تجعل من الانسان مقياساً لجميع الأشياء ، وترى عدم الاشتغال الاّ بالأمور الانسانية ، أعني التي تهم الانسان خاصة . ويقول بروتاجوراس في ذلك : « أما الآلهة فليس في وسعي أن أعلم أموجودون هم أم غير موجودين ، يحول دون علمي بذلك موانع كثيرة : غموض الموضوع وقصر العمر »[2]

والسفسطائيون انما يلتمسون الانسان بوجه عام ، من غير اعتبار لما يفرق بين البشر عادة من جنس او لغة او دين . ويروى ان « هيبياس » كان ينظر الى الناس جميعاً نظره الى « الاقارب وأهل البيت الواحد ، وهم كذلك بالفطرة ان لم يكونوا بمقتضى القانون »[3]

والظاهر انه في حين ان الفلسفة عند الفلاسفة الاقدمين كان مركزها الطبيعة أصبح مركزها عند السفسطائيين الانسان نفسه . فنظر السفسطائيين — كما قال الاستاذ « روبان » — أشبه بمحاولة أو وضع حجر أساسي لبناء فلسفة انسانية جديدة توسع معاني لفظ الانسان . والسفسطائيون ، واعدهم سقراط ، أهم من عمل على احداث هذا الانقلاب في توجيه الفكر وجهة انسانية

٥ — ﴿ السفسطائيون والشكاك ﴾ خلط بعض الكتّاب بين السفسطائية والشكاك . وقد نستطيع ان نعدّ السفسطائيين شكّاكاً من حيث انهم متفقون على انكار ما يسميه

(١) افلاطون : هيبياس الاكبر ٣٦٨ ب د (٢) ديوجانس اللايرتي ... فقرة ٥١
(٣) افلاطون ... ص ٣٠٧ ج

الفلاسفة « بالحق المطلق » او « بالخير على الاطلاق » . اذ الحق والخير عند السفسطائية أمران نسبيان ، وليسا كذلك في ذاتهما وطبيعتهما . فما هو خير فبالنسبة للانسان ، وما قد يكون خيراً في ظرف لا يكون كذلك في ظرف آخر . وعلى كل حال كانوا يرون أن الانسان مقياس لجميع الاشياء ، وان الاشياء « هي حق عند من هي عنده حق ، وهي باطل عند من هي عنده باطل » . وعمدة ما ذكروه من اعتراضات هو اختلاف الحواس في المحسوسات [1]

والشكاك يتوقفون عن الحكم على الاشياء . في حين ان السفسطائيين يتكلمون في جميع الامور ، ويخوضون في كل مسألة ، ويتعرضون لكل رأي ، ويزعمون القدرة على المعرفة في كل موطن

على ان الشكاك اصحاب مذهب مرسوم . هم يطلبون الحقيقة ، لكنهم يذهبون الى انهم لا يستطيعون الوصول اليها . والسفسطائيون — كما قلنا — ليس لهم مذهب معلوم يدعون اليه ، ولا مبدأ مرسوم يناصلون عنه . وأكبر ما يعنيهم هو ان ينشئوا من تلامذتهم وأتباعهم خطباء ذوي فصاحة ولسن ، وسياسيين أهل حذق ومرونة ، وأصحاب جدل يتقنون تأييد كل قضية والانتصار في كل موقف . فلا عجب أن يكون السفسطائيون قوماً لا يحفلون بالحق من حيث هو ، وان يكون شأنهم في ذلك شأن أغلب الخطباء وطلاب الشهرة في كل زمان ومن كان همه التأثير في أكبر عدد من الناس من أيسر سبيل خسيسه ان يوهمهم بصدق ما يقول ، وأن يوقع في نفوسهم غلبة ظن ، وان يحمل رأيه لديهم شبيهاً بالحق

٦ — وقد الحقة على السفسطائية . لكن هذه الحركة الفكرية التي لا ينكر شأنها في تاريخ الفلسفة اليونانية كان لها فيما بعد عواقب وبيلة . فقد أفضت في اوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، من جهة الاخلاق والسياسة ، الى قيام مذهب الكلبيين الذين لا يحفلون بالاوضاع والتقاليد

ومن جهة اللغة أفضت الى تغليب اللباقة اللفظية على الفكر الصحيح . وربما كان السفسطائيون ممن شجعوا الميل الى الخطب الرنانة ، والاسلوب المزركش ، وحشو الكلام وضمّا يحدث في النفوس وقعاً وقتيّا وان كان لا يؤدي معنىً ونصحاً ذا قيمة

وقد يكون من نتائج هذا الانقلاب السفسطائي أنه أدخل فلسفة جديدة إما جدلية صرفة وإما نظرية مجردة ومنطقية محضة . ثم انه أضرّ بتطور العلوم التجريبية التي اتجهت اليها بحوث الفلاسفة الطبيعيين

والمفكرون يأخذون على السفسطائيين عيوباً كثيرة اخرى ، فينقدون آراءهم ونفوسها ، كما هاجمها من قبل افلاطون وارسطو . ومن الباحثين الالمان من ذهب الى أن السفسطائيين

(١) ابن حزم : الفصل في الاهواء والملل والنحل ، جزء اول ص ١٤

قوم يمثلون من نسميهم في لغة عصرنا بحزب « اليسار » : فهم دائماً ثائرون على الاوضاع في الاخلاق او في السياسة او في الدين

٧ — ﴿ الدفاع عن السفسطائية ﴾ ولكن السفسطائيين وجدوا من ذلك من تولى الدفاع عنهم ولاسيما بعض فلاسفة الانكليز وعلمائهم (مثل فردينانند كانيج شلر) : فقد بينوا ما كان يتحلى به جورجياس وبروتاجوراس وبرودیکوس من خصال الصدق والأمانة والشرف، ووصفوا ما كان لهيپياس من سعة العلم، وما كان لجميع افراد هذه الطائفة من حيطة وحكمة اذ انصرفوا الى الاخلاق والسياسة ، معرضين عن المسائل الطبيعية التي يعسر حلها

ووصف أولئك العلماء فضل السفسطائيين على السياسة إذ أعلنوا قدرة الانسان وحريته، ونادوا باستقلاله عن الاوضاع والتقاليد التي ترهق كاهله ، ذاهبين الى أن القوانين الوضعية هي من اختراع الناس وليست أموراً طبيعية، فهي الى حد ما اشياء تحكمية مصطنعة، فيجب أن تكون قداستها محدودة

ومن المدافعين عن السفسطائيين من يذهب الى أنهم أفادوا فن الخطابة والكلام عند اليونان فوائد جمة : وان فصاحة توسيديد[1] وديموستين[2] مدينة لهم بالشيء الكثير

٨ — ﴿ السفسطائيون ما لهم وما عليهم ﴾ مهما يكن في حجج المدافعين والناقدين من حق فليس يسعنا الا أن نلاحظ أن من مآثر السفسطائية انها قد أيقظت الناس من نعاسهم الفكري واطمئنانهم الى الاعتقاد المألوف والعادة الجارية ، وبعثتهم الى الشك النظري والشك العملي . ثم انها قد ساعدت يقيناً على تربية ملكة أدبية أو ذوق علم في النقد لم يكن للناس عهد بهما من قبل . لكن اكبر ذنوبها — في نظرنا — هو قلة مبالاتها بالحقيقة ، وبعدها عن روح البحث المجرد عن الهوى ، والمقرون بالامانة والصبر

وتأخذ عليها كذلك جريها وراء شقشقة اللسان، وحصر عنايتها لا في المعرفة بل في الاقناع ، وميلها في كل شيء الى المظهر ، والأثر الخارجي، والمنفعة المباشرة العاجلة

ان صح ان للسفسطائيين مدرسة فهي مدرسة ينقصها المجد الفلسفي والامانة العقلية . فلا عجب ان روحها هذه قد ألحقت بالعقلية اليونانية أضراراً كثيرة . ولا شك ان شعوبية بلادنا ليست بحاجة الى مثل دروس السفسطائية في « الوصولية » ، وعبادة القوة ، والنجاح بأية وسيلة . وجميعها صفات لا توافق خلق الفيلسوف

(جامعة فؤاد الأول)

---

١ — Thucydide كاتب مؤرخ اليونان ، صنف كتاباً في تاريخ حرب البلوپونز وهو مؤرخ فيلسوف يدرس الحوادث لمعرفة قوانين سيرها (٤٦٠ — ٣٩٥ قبل المسيح)

٢ — Démosthène خطيب اليونان الاكبر (٣٨٤ — ٣٢٢ ق م)